أنساق الحكي السائحي الهامشي زمن النمرود –عينة–

example: The ‹Marginal tourist narrative formats Time of Nimrod

الدراجي[1] عباسي/

[1] طالب دكتوراه،جامعة مولود معمري– تيزي وزو–

darradji.abassi@ummto.dz

تاريخ الإرسال:2021/09/23 تاريخ القبول: 2022/08/12 تاريخ القبول: 2023/01/08

ملخص تسعى هذه الدراسة البحثية الموسومة بأنساق الحكي السائحي الهامشي زمن النمرود –عينة–، إلى فضح الممارسات المسكوت عنها للمؤسسات السياسيّة والاجتماعيّة والثّقافيّة في الوطن العربيّ؛ وتعرية خطاباتها. استطاعت فيه الرّواية الجزائريّة أن تثبت وجودها أمام مثيلاتها في السّاحة الأدبية العربيّة، وأن تخلق فضاء خاصا بها؛ وأن تكرّس صوتا روائيّا متميّزا، من خلال جملة من المنجزات التي واكبت كل ما طرأ على المجتمع الجزائري من أحداث على كافة المستويات، السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة والفكريّة.

الكلمات المفتاحية:هوية، هامش، السلطة، تشظي.

Abstract: *This study entitled: marginal tourist narrative formats‹ example of Nemrod‹ seeks to expose the marginalized discourses and practices of political‹ social and cultural institutions in the Arab world. Hence‹ the Algerian novel has been able to prove its presence in front of its counterparts in the Arab literary scene and create its own space and with a distinguished narrative voice through a number of achievements that have accompanied all the events that have occurred in the Algerian society at all levels: political‹ economic‹ social and intellectual.*

Key- words : *identity‹ periphery‹ power‹ fragmentation.*

1– مفتتح:

من المسلم به أن النص الأدبي عموما، والسردي بوجه خاص عالم مليء بالأسرار والألغاز الفنية التي يحاول الناقد أو القارئ فك مغاليقها، أو الوقوف على حافة إدراكها وفهمها في محاولة للوقوف على أكثر من

كنه العمل الأدبي ومكوناته، وكلما أمعن القارئ أو الناقد النظر في نص ما، اكتشف أشياء لم ترد في خاطره، وقد لا يتوقعها، وبإدراكه لها أو لبعضها يزداد قربا من عالم النص، فيعدل من مداركه وطرائقه في التناول والفهم والتحلي.

لا نعني بكتابة الهامش تهميش الكتابة أو رسم الهوامش والشواهد وغير ذلك، ولكننا نعني ضم الهامش إلى أنساق الكتابة الأدبية والاعتراف بها مرجعا وتمثيلا تخييليا، وهو توجه بارز في الرواية العربية التي تحاول تجاوز الخط الرسمي وكسر المألوف منها، وبالتالي يتمكن لنا أن نعتبر خطاب الهامش مجالا مفتوحا للسرد يحاول معاكسة الخطاب الرسمي ومراوغة أنساقه، من خلال تصوير الواقع اليومي المتردي للحياة اليومية، ومحاولة تبني مشاغل الناس في المناطق والأنحاء المهمشة، وهي المواضيع التي تحاول الخطابات السلطوية العربية تجاهلها والصمت عنها، كي يفسح المجال لخطاباتها ولإنجازاتها، كما تجتاز كتابة الهامش الخطوط الأخلاقية الحمر وتقترب من الخطابات المحرمة والممنوعة.

وقوفا عند المحطات المذكورة والحدود والفواصل بين الخطاب الهامشي والرسمي نلفي روايات المغربي مُحَمَّد شكري تندرج ضمن هذا المجال، لتفسح هذه الكتابة المجال للمهمشين والمتمردين بالبوح والحكي، ومن الطبيعي أن الحديث في هذه النوعية من الخطابات الأدبية والسردية يطول،ذلك أنها أحدثت تراكما لا بأس به في الأدب العربي قديما وحديثا، ولعل الرواية التي نتناولها الموسومة بـ"زمن النمرود" للحبيب السائحي في هذا النص تشكل واحدة من الروايات التي يمكن تصنيفها ضمن هذا التوجه السردي والروائي، فهي رواية تحاول كتابة الهامش الاجتماعي وتتخذ من عوالم المهمشين متخيلا.

2- النسق الفكري الهامشي في رواية "زمن النمرود":

تعد "رواية "زمن النمرود" منعطفا حقيقيا في مجال الكتابة الروائية في الثمانينيات سواء من حيث تمردها على اللغة العربية وطغيان العامية فيها وذلك قصد مخاطبة العامة من الناس، أو من حيث جرأتها الصريحة في تناول وضع البلاد الاجتماعي والاقتصادي والسياسي، وهذا لكون مؤلفها من الروائيين الذين تأثروا بالوضع العام للبلاد في تلك الفترة وعايشوه بسلبياته وإيجابياته، فكانت روايته هذه صورة لذلك الواقع المليء بالتناقضات، وهذا ما يفسر هيمنة الجانب الأيديولوجي عليها.

2-1 الاستعمار والإيديولوجية التهمشية:

الخطاب الذي بين أيدينا على الرغم من أنه يحكي وقائع حقبة زمنية محددة لجزائر الاستقلال، إلا أنه لم تخل من الإشارة إلى الاستعمار وأيامه المرة، ولعل هذا الطرح يؤكد لنا بأن الجزائريين لم ينعموا بعد بكامل استقلالهم فجاء الحديث عن الاستعمار وسياسته لتوضيح ذلك وهذا يعود لرؤية الحبيب السايح بضرورة مواصلة الكفاح من أجل تنظيف خارطة البلاد السياسية وإعادة مسارها إلى ما اتفق حوله قبل وأثناء الاستقلال. هذا وقد شكلت الثورة جزءا هاما من الإنتاج الروائي الجزائري بداية من مطلع السبعينيات، حيث ظلت المرجعية الفنية والأيديولوجية لكل روائي.

زمن النمرود من المرويات المليئة بالأيديولوجية والفكر الاستعماري وقد ظهر ذلك عبر مقاطع متفرقة ظهرت فيها مسألة تزييف هوية الشعب عن طريق محاربة الإسلام واللغة العربية وتزوير الحقيقة التاريخية المرتبطة بالوطن والإعلاء من شأن المستعمر، جاءت هذه المقاطع فاضحة لتلاعب المستدمر عبر فتراته المختلفة والمتواجد فيها في الجزائر، وما استخدمه الحبيب السائح من ومضات استنكارية على لسان شخوص رواية إلا دليل على ذلك، فهذا "يزيد" منسق القسمة يحدثنا عن صديق والده "المستاتور" الذي كان يعرف "ابن باديس" ويقول عليه: "إذا بغيتم الخير يعم

والزوايا تكثر وفرنسا تعمر، حاربوا معنا ابن باديس جميع علمه كفر، في سنة 1936 تحالف مع "ذرية النمرود" وقادر يتحالف مع الشيطان، قرأنا في التوراة، الإنجيل، وقرأتم في قرآنكم و"سيدي خليل".. ما وجدنا ما ينادي به، ابن باديس خارج إرادة الرب وإرادتنا من إرادة الرب، إرادة الرب لا تقهر"[1].يوضح هذا القول جانبا مهما من أيديولوجية الاستعمار وإستراتيجيته التي سعى من خلالها إلى تجهيل الجزائريين؛ حتى يتسنى له كبح كل مقاومة، فيصبح تواجده بالجزائر أمرا حتميا، وعلى الجزائريين أن ينصاعوا إلى ما يمليه عليهم، وأنهم يتجهوا إلى الزوايا التي أسسها لهم أشخاص من أتباعه، مستغلا بذلك تخلفهم ليزيدهم أكثر مما هم عليه، فمهمته بالدرجة الأولى كانت تحطيم الإنسان الجزائري وتكبيله بقيود الأمية وزرع الخرافات في ذهنه، وتركه في غياهب التهميش يقبع هناك، وهذه الصورة تبين لنا ذلك ""الحاج بوعلام" و"الأغا" يومها تصالحوا مع "المستاتور" و"الشيخ المقدم" تغدوا في مقصورة الزاوية، والزردة ظلت وباتت حتى الصباح.. عشر مجامر زاهرة ولاهبة اكلها الزهاد...الشيخ قال: هذا "ابن باديس" أرسل شياطينه، أمر كل الحضار والخدام بالزهدة "المستاتور" طرب وبارك للشيخ وقال له: العام القادم ما يبقى جياع، ولا يجيء هم.."[2] دليل على ذلك.

المتأمل لمرويات السائح يتضح له ما سعى له الاستعمار من تزييف للوعي الشعبي؛ بل تعداه إلى أكثر من ذلك من اضطهاد على المستوى المادي –سلب الأراضي من أصحابها الشرعيين–، وجعلهم عبيدا فيها يخدمونها لصالحه، هذا "الحاج الحرايري" يخبرنا عن أحد الملاكين الاستعماريين الكبار الملقب بـ"مارولي" قائلا عنه:"هذه الاراضي منهن السعيدة، ومن هنا حتى "بالول".. كانت كلها له بالطيارة كان يسيرها، هذه الأراضي لما كانت ملكه كانت تخرج الذهب.. العرب كانت تخدم من الفجر للمغرب..."[3].

كما برزت إيديولوجية الاستعمار مختلفة وكثيرة في سياسة الاعتقال، والتعذيب اللاإنساني لكل من يحلم ويؤمن بحرية وطنه الجزائر، وهذا المجاهد "المسعودي يصف لكاتب القسمة "ولد ربيعة" سجن "بوشقيف" عندما ألقي عليه القبض من طرف قوات الاحتلال في معركة "تامسنة" قائلا: الله لا يريك سجن "بوشقيف" زنزانته كنا ندهلها عرايا مرات نبقى فيها الليل والنهار، لا شراب، لا أكل، كان الاستعمار يبغي أن نقروا أن نرتد، كاين من ارتد ولكن الأغلبية صمدت، كنا عندما نصطف في ساحة السجن ـ نسلم على بعض بعيوننا فقط ـ وكان في السجن حركي اسمو "جدلابو" يأتينا ويختار أقوانا ويضربه على قلبه حتى يسقط، وإذا تكلم.. ذاك نهاره، كانت الكلاب تحرسنا تشمنا إذا تحرك واحد تنهشه..."[4].

بالإضافة إلى هذا فالرواية لم تخلوا من وصف الحرب الجهنمية التي خاضها الاستعمار ضد أبناء الشعب الجزائري والتي استخدم فيها وسائل حربية متطورة قصد إبادة كل الأحرار الذين آمنوا بالحرية لوطنهم والخلاص من نير العبودية، فجاء ذكر بعض المعارك وما حدث فيها للتدليل على ذلك فـ"المسعودي" الذي عايش وقائع الثورة وشارك فيها يحكي لنا بعض وقائعها قائلا:" في معركة "اللبة " جرحت واستشهد عشرة ـ الله يرحمهم... الصباح على الخامسة بدأت المعركة.. أنا على الحادية عشرة بالتقريب غبت على الدنيا، جراحي كانت خطيرة، سمعت من بعد قالوا: المعركة استمرت حتى الرابعة بعد الظهر.. كنا محاصرين من عدة مواقع، من "تامسنة" من "تيسيري" من "بالول" من "تاقدورة" وصلت نجدات من "السبايس" إلى العسكر جاءت من "سعيدة" و"مركز مارولي"طياراتهم الصفراء ظلت فوق رؤوسنا... في المعركة استشهد عشرون مجاهداً، الله يرحمهم الشهداء"[5]. استطاع الحبيب المزج بين المأساة والواقع بأسلوب جمالي وفني؛ بتصوير الدّمار الشّامل ومحاولته كشف الأسباب الخفية لهذه الظاهرة، وحصر الخسائر والتّكاليف الماديّة والبشريّة والمعنويّة النّاجمة عن الأعمال القمعية والوحشية، منبطش المستعمر، والّتيخل قتصدما تنفسيّة لمختلف فئات الشعب

جراء الفجائع؛ الّتي أصبح يعيشها يوميا، فجاءت الرّواية كجنس أدبي محاولة معالجة هذه الظّاهرة أدبيّا، باعتبارها المرآة العاكسة للشّعوب وأفكارها حيثي جعلها الأدباء بمثابة المسرح، الّذي يلعب ظاهرتي العنف والاضطهاد على خشبتها دور البطولة لمسلسل الأزمة، وذلك لتأثرهم بالأحداث الواقعة آنذاك وعبروا من خلال عن المأساة والمعاناة الّتي شهدها الشّعب الجزائريّ وحاجياته في مختلف النّواحي الجسديّة والنّفسيّة والفكريّة والاقتصاديّة والسياسيّة إلخ.. وكانت في إثر ذلك الفئات الشّعبيّة المسحوقة عاجزة أمام الظّلم والطغيان والعنف المشحونة بالغضب والحقد، الّتي راح ضحيتها شعب بريء بأكمله واستطاعت الرّواية أنت كشف عنه. وبما أن الكاتب ابن بيئته يهتمّ بأمور مجتّمعه ويتوغّل في قضاياه محاولا الاسهام فيه، من خلال أعماله الأدبيّة الّتي تعبر عن واقع المجتّمع والمشكلات المتفشيّة فيه.عموما فقد شكل العنف في الرواية الأداة الأساسية التي بنى عليها الاستعمار خطابه الايديولوجي التهميشي الإقصائي والأبعادي، واستعمل القوة المادية لتحطيم الجسد وإعاقة مسار التحرر.

2-2 السّلطة والمجتمع:

يتبنى أفراد "ذرية الذئاب" التوجه الرأسمالي المناقض تماما للمسار الاجتماعي والسياسي للدولة الجزائرية آنذاك، فهم يخونون وطنهم مقابل مصالح زائلة انطلاقا من شرعية اكتسبوها بنية غير الوطنية، وهذه الصورة التي تصف لنا "الحاج عون الله" لدليل قاطع على صحة ما أقوله "الاستقلال جاء به الأحرار، أنت سبقت الدنيا بنت الكلب.. أكتافك أعراض، مسؤول سياسي، عيونك في مدينتنا دخلتها بالعباية ـ كما دخلت تونس والسبحة والخطبة بعد سنتين طولت رجليك، قلبتها كوستيمات ومن بعد رفعت العصا وكملتها بالكذب"[6].تواجد هذه الفئة داخل أجهزة الحزب المختلفة لا يكمن في كونه أداة لممارسة السياسة فحسب، وإنما في كونه "جهازاً، أي في تبعيته لجهاز الدولة، لا في استقلاله عنه، لأن دوره في خدمة الممارسة السياسية لفئة من فئات الطبقة المسيطرة، أي في خدمة وصول هذه الفئة للهيمنة تنطلق من وجود

السيطرة الطبقية لهذه الطبقة، ومن ضرورة الحفاظ عليها، لا من ضرورة التحرر منها، كما هو الحل للحزب الثوري فقوة السيطرة إذن في الطبقة المسيطرة ليست في أحزابها، بل في استخدامها جهاز الدولة كأداة أساسية في ممارسة السياسة للصراع الطبقي لأن أحزابها تستمد قوتها من تبعيتها لجهاز الدولة، أي من كونها أداة لهذه الأداة"[7].

لذلك فإن "الحاج عون الله" الذي يمثل رأس هذا التيار لم يتوان في تنصيب من يؤيدونه في الفكر في سبيل المحافظة على مصالحه وحمايته بواسطتهم"تعرف جميع الموالين الكبار، يحكمون بأحكامهم، نصب بعضهم مسؤولين في القسمات والبلديات، اعطيتهم مراكز السلطة والجاه، هم أعطوك الصوف والزبدة والعسل والزربيات والدعاية لك من عندهم زيادة"[8]، لأنهم اكتسبوا من وراء تنصيبهم هذا أموالا كثيرة فـ"الحاج الحرايري" صار مصدر ثروته متعدداً إذ "القهوة في وهران تخدم، والأرض في الحساسنة تدخل والمسؤولية في المنظمة تزيد وما يدخل من هنا وهناك بلا حساب..."[9].

الشيء نفسه يمكن قوله على منسق القسمة "يزيد" الذي جنى ثمار تنصيبه لابن عمه "الحاج المزرقط" على كرسي البلدية، وحتى رئيسة الاتحاد النسائي "أم الشيخ" استغلت هي الأخرى منصبها وعملت على إثراء نفسها باكتنازها كمية كبيرة من الذهب، فهي بذلك لم تخرج عن القاعدة النسائية المتعارف عليها داخل مجتمعنا المتمثلة في ثراء المرأة من خلال ملكيتها للحلي.

كما سعت "ذرية الذئاب" من خلال تواجدها على هرم السلطة إلى انتزاع الأراضي المؤممة من الفلاحيين، فعلى حد تعبير "يزيد": "الأرض بالمسؤولية والمسؤولية بالأرض"[10]. فهما شيئين متلازمين، ولعل هذا الفكر والتوجه الإقطاعي نابع أصلاً من كونهم ينبذون الاشتراكية، ولكونهم أيضا متأثرين بالإقطاعيين الكولونياليين فهم لم يتأخروا في مدحهم، ويظهر ذلك في الحوار الذي دار بين "الحاج الحرايري" وسائقه حول ما كانت تسمى مزرعة "مارولي"، إذ عمل "الحاج الحرايري" على الإعلاء من

شأن مالكها عندما استرسل في الحديث عنه وعن مزرعته، آملا في ذلك أن تعرضها الحكومة للبيع حتى يتسنى له ولأتباعه الاستفادة منها وهذا لكونه يؤمن بأن: "الاشتراكية عند العرب والله ماتتحقق"[11]، لذلك نجده يعمل رفقة أتباعه على فساد تفاح التعاونية الفلاحية حتى يتخلى الفلاحون عن خدمتها "أيها الإخوة كلمتي قصيرة جئت من "سعيدة" والطريق بينها وبين "بالول" معروفة تعبت مشاكلكم كلها أعرفها، مشكل التفاح أعرفه، ومشكل الصناديق أعرفه، نحن مسؤولون تحملنا مسؤوليتها، وفي كل مرة نأخذ القرارات اللازمة، كلمتي قصيرة أطلب منكم تقديم تقرير مفصل للأخ "يزيد" منسق القسمة، وهو يبعث إلينا ونحن ندرسه، إذا لزم الأمر نبعث به إلى المنظمة والوزارة اكتبوا، اكتبوا نحن على مستوى الولاية ندرس جميع المشاكل.."[12]، فهمه الوحيد جمع أموال من الفلاحيين البسطاء عن طريق دفع الاشتراكات.

إن أزمة "ذرية الذئاب" المسيطرة تحدد "داخل الحقل السياسي للصراع الطبقي بتغيير في علاقة السيطرة بين الممارسة السياسية لهذه الطبقة والممارسة السياسية للطبقة النقيض، أي للطبقة العاملة، أو التحالف الطبقي الثوري بقيادة الطبقة العاملة..."[13]، فبمجرد انكشاف أمرهم أمام الرأي العام بتزوير الانتخابات ومحاولة منهم احتواء الأزمة لجئوا مباشرة إلى التضحية بمن رشحوه لقيادة القسمة ـ يزيد حفاظا على مصالحهم.

وأخيرا إن ما يمكن قوله حول "ذرية الذئاب" أنهم تدرجوا من الإقطاعية إلى الليبرالية الحديثة معتمدين في ذلك على تواجدهم بمختلف أجهزة الحزب الحاكم، ساعين بذلك إلى تحقيق مصالحهم الأحادية الطرف، فلم يعبروا عن طموحات وآمال الشعب الذي يسعى إلى تحسين ظروفه الاجتماعية بالتخلص من الاستغلال والعبودية.

2-3 المبعد في زمن النمرود:

تمثل "ذرية النمرود" في الرواية الفئة التي حرمت من نعيم الاستقلال على الرغم من مساهمتها الفاعلة في دحر الاستعمار ونيتها الخالصة في بناء هذا الوطن.

على الرغم من اشتراكها في هدف واحد تمثل في محاربة المفسدين من أذناب الاستعمار والاستغلاليين والانتهازيين الذين يحاولون فرض الرأسمالية كبديل لما اتفق عليه بيان أول نوفمبر 1954م الداعي إلى العدالة والمساواة واستغلال خيرات الوطن لصالح كافة الشعب وأبناء الشعب، إلا أن رؤاهم الأيديولوجية داخل الرواية متباينة إلى حد بعيد، فهناك من دعا إلى إرساء قواعد الاشتراكية كنظام سياسي واقتصادي واجتماعي باعتباره يمثل التوجه السليم لبناء الدولة، وتوزيع الثروة توزيعا عادلا بين أبنائها وهناك من خالف هذا الاتجاه وذلك بدعوته إلى تطبيق الشريعة الإسلامية كحل جذري للأزمة الوطنية باعتبار أن الشعب الجزائري تاريخياً شعب مسلم، وعلى هذا الأساس قمقمنا بتقسيم أيديولوجية "ذرية النمرود" إلى أيديولوجية اشتراكية وإلى توجه ديني.

حدثت الثورة الجزائرية نتيجة صراع تاريخي طويل مع الاستعمار، وكان الفلاحون وقود كل الانتفاضات، كما كانوا وقود الثورة المسلحة، لذا فالثورة الزراعية جزء من الثورة الجزائرية.

لقد فرض الفلاحون "رغبتهم بالاستيلاء على أراضي المعمرين "الكولون" فور تحقيق الاستقلال، وهو ما يسمى بالتسيير الذاتي، وجاءت الثورة الزراعية في مرحلة السبعينيات نتيجة استمرار الفلاحين وطموحهم إلى فرض العدالة الاجتماعية والقضاء على استغلال الإنسان للإنسان"[14].إن الفلاح الجزائري لم يعد يرضى في هذه المرحلة أن تهان كرامته وثورته، ولم يعد يتقبل أي شكل من أشكال الاستغلال وحياة التهميش والانعزال والتخلف والجهل، وذلك مرده في نظرنا إلى أنه ذاق مرارة القمع الوحشي الاستعماري من التعذيب إلى التجويع إلى السجون... إلخ، وهو في كل هذا

يستند إلى تاريخ مدرسة الحياة اليومية التي علمته بأن أفضل علاج للعبودية هو الثورة التي تصنع له الحرية وتحقق له إنسانيته.

الثورة الزراعية بتأميماتها لملكيات كبار الإقطاعيين، كانت "فصلا جذريا في تاريخ نضال الفلاحيين الجزائريين، إذ اختفت العبودية الإقطاعية في مجال الزراعة، وهذا لم يكن إلا بعد تجنيد وطني للقوى المؤمنة بالحرية ونبذ العبودية وزوال استغلال الإنسان للإنسان الذي لم يتحقق إلا بفرض نظام اشتراكي علمي تحت راية جبهة التحرير الوطني"[15].

كانت القوى الفلاحية والعمالية في كل الانتفاضات، وفي الثورة المسلحة وقود النضال من أجل التحرر الوطني بقيادة "جبهة التحرير الوطني"، فهي القوى التقدمية والطلائعية التي صنعت تاريخ الجزائر الحديث بقيادة المناضلين الثوريين والمثقفين العضويين، وكل الوطنيين المخلصين لوطنهم في إطار تنظيم أيديولوجي موحد عرف بـ"جبهة التحرير الوطني" وهو مفجر الثورة (ثورة نوفمبر) الخالدة التي تحدث الاستعمار الفرنسي أعلى أشكال الامبريالية آنذاك.

استطاعت هذه الثورة أن تحرر الأرض من الكولون والإنسان من العبودية الاستعمارية والسيطرة الامبريالية "كانت سنوات الحرب درسا عظيما ترسخ في ذات كل جزائري يرفض أن يرى نفسه مرة أخرى عرضة للاستعمار الامبريالي بشتى أنواعه وكل أساليبه اللاإنسانية، وخلق الطموح إلى الحرية والعدل والاشتراكية".إن تجربة الثورة الجزائرية كانت درساً عظيماً لكل فرد جزائري ناضل من أجل ألا يرى نفسه مرة أخرى عرضة للقهر والاستغلال والظلم بقيادة "جبهة التحرير الوطني" التي اتسمت في نشأتها بسمات الأحزاب الاشتراكية ـ شأنها شأن الحزبين الشيوعيين السوفياتي والصيني ـ وفي وضع ثوري، وكان هدفها الاستيلاء على السلطة عن طريق تحرير البلاد من السيطرة الاستعمارية، وكانت الجبهة شأنها شأن الحزبين الشيوعيين الصيني والكوبي تتمتع بتأييد الفلاحيين وتقودها في الأغلب كوادر حضرية، ومع ذلك فإن

الخاصية المميزة للجبهة هي أنها لم تكن من الممكن أن تعرف بأنها اتحاد أحزاب وبأنها حزب واحد... وجبهة التحرير الوطني ليست حزبا أيديولوجيا خالصا من النمط الغربي الليبرالي، ولا هي حزب طبقي بالمقاييس الماركسية، ولا هي أرستقراطية من النمط الفاشي، إنما هي حزب مساواتي وديموقراطي"[16].

إن استقلال الجزائر أفضى إلى بناء الدولة على أنقاض متبقيات الاستعمار المؤسساتية والسلوكية والذهنية، والتسيير الإداري لمؤسسات الدولة التي ستبنى على جهود المتعبين من الحرب وهم المجاهدون وبعض الشباب الذين تثقفوا وتحصلوا على شهادات جامعية مفرنسة ومعربة، كما خلقت الثورة أيضاً ذلك العجز الظاهر بعدم قدرة تسيير الفئة الثورية الشعبية الفلاحية لمؤسسات الدولة نتيجة أميتها وتعبها من الثورة والجراحات مثل المعطوبين والمعوزين والفاقدين لمساكنهم ومناصب شغلهم والذي هم بحاجة إلى عون الدولة بحد ذاتها.

كان على الثورة بعد الاستقلال الاستمرارية في الصرعية الثورية وتبني هذه الفئات اجتماعيا واقتصاديا، وكان على الدولة الفتية إلزامية بناء مؤسسات الدولة الموروثة من الاستعمار وتسييرها اقتصادياً إدارياً مثل المناج والبترول، والسكك الحديدية والطرق والمواصلات وبناء المدارس والجامعات واستغلال التعاونيات الفلاحية... وكل هذه المؤسسات أسندت لفئتي المجاهدين والشباب الثوريين، ومنه استخلصت أيديولوجيتها الاشتراكية.

3- جمالية القبح قراءة عند الحبيب السايح: إن موضوع الفن بكل أنواعه وأشكاله هو "الإنسان في علاقاته بالوقع بقدر ما تكون هذه العلاقات والصلات متنوعة، يدخل في دائرة الفن كل تنوع العالم المادي، فالفن يعطينا لوحة كاملة للحياة الاجتماعية إذ يرينا الإنسان في إنتاجه، وفي حياتنا اليومية، في معاناته الصميمية وتصرفاته الاجتماعية..."[17].

إذا دخل القبح في ميدان الفن فإنه يأخذ "صورة مثالية تمنحها له قوانين الجمال العامة كالتناسق والانسجام والتناسب وقوة التعبير الفردي، ونتيجة هذه المثالية ليست تخفيف القبح أو التغيير منه بمداراته، ولكن على العكس تماماً، أعني تأكيد طباعه الأصيل المميز"[18].الأشياء القبيحة هي تلك التي تمثل الخصائص المتناقضة للحيوية العامة، أو المناقضة لما نعده صورة أو صفة للوجود الحي خاصة بها ثم يفرق «هيجل» بين الجمال في الطبيعة والجمال في الفن بأن الأول لم يقصد إلى إنتاجه بصورة واعية ويقصد التأثير الجمالي، ومن ثمة فإن العمل الفني مهما كانت الأشياء التي يحيكها قبيحة فإنها لا تجعل العمل نفسه قبيحاً لأن العمل الفني يتمتع بقيمة جمالية منفصلة عن جمال الشيء أو قبحه"[19].الفنان المتمكن والذكي هو الذي ينقل إلينا "الشيء الجميل في نظرنا أو كما هو معروف لنا أيضاً، والمتعة التي تحدث لنا بسبب مهارة الفنان في نقل القبح تحمل في طياتها ضمناً أن ما هو قبيح كل القبح ولكنه معجب في الفن فيه شيء يستطيع الإدراك أن يفهمه على أنه جميل وهذا الإدراك بطبيعة الحال هو إدراك الفنان أولاً وإدراك المستمتع بفنه ثانية"[20].

إن السمات القبيحة في رواية "زمن النمرود" تبدو في تصوير شخصيات "ذرية الذئاب" مهلهلة من الداخل وخاصة فيما يخص العلاقة مع الجنس الآخر ـ المرأة ـ فظهر في الرواية رئيس البلدية وأصدقاؤه مدمنين على ممارسة الجنس مع نساء هن لسن حل لهم، كما أن الشخصيات الفاعلة في هذا الطرف المتمثلة في "الحاج عون الله" و"الحاج الحرايري" و"يزيد" ينطبق عليهم نفس الحكم إذ أن "ثلاثتهم يجمعه الكبت الجنسي الذي يعبر في حالتهم عن غياب التوازن ويؤشر على فشلهم الذريع في إقامة علاقات إنسانية مشبعة، الأول من خلال علاقاته المشبوهة مع "أم الخير" والثاني والثالث عبر رفضهما على التوالي من طرف جازية ويمينة"[21].

يشكل الظلم عبر صفحات الرواية الحيز الأكبر إن لم نقل أنها بنيت عليه ويظهر ذلك في إقصاء "المانكو" و"زينب" و"يمينة" من الحزب، وفي منع ترشح

معارضيهم في مختلف المنظمات الجماهيرية وإبقاء السيطرة لصالحهم، وهذه الصورة توضح لنا مدى تماديهم وعزلهم لغيرهم بإقصائهم من ممارسة أي نشاط، فكيف بمدير شركة يشغل منصب أمينة عام للعمال ويدافع عن مصالحهم بثنائية المنصب "غير المناضل في الحزب لا يحق له تقليد مسؤوليات على رأس المنظمات الجماهيرية... مناضلونا قبل كل شيء، وفوق أي اعتبار، قالوا: عدد آخر من الأشخاص سلم بطاقات العضوية في الحزب، مجلس القسمة كاد يتفجر حول هذا، أكثر من الثلث كان رافضاً، الأنصار في القسمة قالوا: للنفوذ القبلي دوروه في مثل هذه المعارك، نسلم اليوم ونسحب غدا بمثل هذه البطاقات نضمن لأنفسنا ولحلفائنا الفوز كالعادة، مسألة كهذه يرتب لها في زردة خاصة، تنظم عادة خارج المدينة"[22].يتجلى الظلم أكثر في الزج بزعماء "ذرية النمرود" داخل السجن نتيجة مواقفهم المتصلبة والرافضة لأي شكل من أشكال التسلط، وفي محاولة اغتصاب "يزيد" لـ"يمينة".

تشكل المناصب الحساسة التي تشغلها هذه الفئة وتحلم بما هو أكبر منها مصدر جبروتها في كبح أي محاولة تدين أعضائها، ويظهر ذلك في تمني "الحاج الحرايري" النيل من "عوج الفم" و"ذرية النمرود" جميعاً باعتبارهم يمثلون خطراً حقيقياً عليه خاصة فيما ينسج حوله من شائعات "آه يا "عوج الفم" لو كنت في منظمتي.. النفي معك.. إلى "رقان".. لا يكفي، أمثالك و"ذرية النمرود".. لو أحكم يوم واحد في حياتي أجمعكم وأبطحكم على الأرض مسلسلين في طريق طويل، فوقكم بالدبابات آمر بالمرور، أضلاعكم أسمعها تتهرس، تتطحن، آخرتها تصحو كالعادة، وأتكفل بك، أصبر يا "عوج الفم"[23].

خاتمة:

يبتدئ البحث العلمي عادة بمجموعة من الأسئلة والاستفسارات التي تصاحبها فرضيات وتوقّعات، ومن طبيعة أي عمل أو بحث علمي أن تكون له ثمار في ختامه، وبين الشّوطين يتحسّس الباحث مشقّة العبور من المجهول إلى المعلوم، ويعيش متعة السفر بين زحمة الأفكار التي تشعره أحيانا بالدوار وأحيانا أخرى تقرّبه من سرّ الحقيقة التي لا يخبر أغوارها إلّا من ذاق فعرف. وقد حاولنا رصد بعض ما توصلنا إليه في النقاط التالية:

-ارتبط الأدب بأيديولوجيا معينة رفع لواءاتها، وتولته بالرعاية والعناية.

-مهما تعدَّدت الثّنائيّات في العمل الإبداعيّ، فإنّها تظلّ تمارس لعبة التّستّر والخداع من خلال تفعيل وجودها في فضاء الإرجاء المقصود للمعنى، ويظلّ الصّراع فيها يأخذ حيّزا ضروريّا بسبب وضع شيء مضادّ لشيء آخر، ومنهنا يظهر التّنافر بين الخفيّ والجلّيّ.

الهوامش:

[1] الحبيب السايح: زمن النمرود، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1985، ص 46.

[2] الرواية: ص 47.

[3] الرواية: ص 69.

[4] الرواية: ص 95.

[5] الرواية: ص 94-95.

[6] الرواية: ص 62-63.

[7] مهدي عامل: مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في التحرر الوطني، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط3، 1980، ص69.

[8] الرواية: ص 63.

[9] الرواية: ص 33.

[10] الرواية: ص 49.

[11] الرواية: ص 73.

[12] الرواية: ص 82.

[13] مهدي عامل: مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في التحرر الوطني، ص 105.

[14] عبد الله بن قرين: النقد الأدبي الحديث في الجزائر، رسالة ماجستير بإشراف د/ فؤاد المرعى، قسم الأدب العربي، جامعة حلب، سورية، 1985م-1986م، ص 96.

[15] المرجع نفسه: ص 97.

[16] الأزرق مغنية: نشوء الطبقات في الجزائر، تر: سمير كرم، ب د ن، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص 218.

[17] جماعة من الاساتذة السوفيات: أسس علم الجمال الماركسي اللينيني،ج2،تر: فؤاد المرعي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، دار الجماهير العربية، دمشق، سوريا، 1978، ص 42.

[18] عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ط، 1992، ص 51.

[19] المرجع نفسه: ص 50.

[20] المرجع نفسه: ص 49.

[21] حسن بحراوي: الرواية والواقع، قراءةفي (زمن النمرود)، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، المغرب، ع 1، 1990، ص 79.

[22] الرواية: ص 15-16.

[23] الرواية: ص 27.

قائمة المصادر والمراجع:

(1)الكتب:

1- جماعة من الأساتذة السوفيات: أسس علم الجمال الماركسي اللينيني، ج2، تر: فؤاد المرعي، دار الفارابي، بيروت، لبنان، دار الجماهير العربية، دمشق، سوريا، 1978،

2- الحبيب السايح: زمن النمرود، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، وحدة الرغاية، الجزائر، 1985.

3- عبد الله بن قرين: النقد الأدبي الحديث في الجزائر، رسالة ماجستير بإشراف د/ فؤاد المرعى، قسم الأدب العربي، جامعة حلب، سورية، 1985م-1986م.

4- عز الدين إسماعيل: الأسس الجمالية في النقد، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، د ط، 1992.

5- مهدي عامل: مقدمات نظرية لدراسة أثر الفكر الاشتراكي في التحرر الوطني، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط3، 1980.

(2): المجلات:

1- حسن بحراوي: الرواية والواقع، قراءةفي (زمن النمرود)، مجلة آفاق، اتحاد كتاب المغرب، الرباط، المغرب، ع 1، 1990.